التسامح قيمة إنسانية أقرّها الإسلام وثبّتها العقل البشري

الأستاذ : بليفة ميلود
كيلة الاداب والعلوم الانسانية
جامعة الجيلالي اليابس
سيدي بلعباس

ان المتمعن في النصوص و الخطابات الفكرية للفترة الراهنة، يقف على حقيقة واحدة والمتمثلة في اعتماد أصحابها الميل لتوظيف وبشكل مكثف للمصطلحات التي ينبغي الوقوف عندها لما تتظمنه من جهة ولما أريد لها من توظيف في سياقات قابلة للتأويل والقراءات المتباينة وحتى المتعارضة (الخطاب السياسي والاديولوجي مثلا) .

ومن جملة هذه المصطلحات التي تعطي الخطاب الحالي ثقله وقوته خاصة لدى المتلقي في الساحة العلمية الراهنة نجد على سبيل المثال لا للحصر :" الحوار ، الحرية، الديمقراطية، العولمة، التسامح..." ونود من خلال هذا المقال المتواضع تناول موضوع التسامح كما تجلى في التشريع والسياسة الإسلامية تجاه الغير ، والمقصود هنا بالغير أهل الكتاب وغيرهم من الديانات التي عرفها المجتمع البشري بعد نزول الوحي على من اصطفاه الله عوجل من عباده أجمعين لتأدية هذه المهمة بكل إخلاص وأمانة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

إن موضع التسامح الديني لمن المواضيع الجديرة بالدراسة والاهتمام كونه أصبح يستقطب اهتمام الأقلام السياسية

والإعلامية و الدينية العربية الإسلامية منها والغربية بكيفية غير مسبوقة

في الوقت الحالي من جهة ولما تم توظيفه في الخطابات السياسية ذات البعد الإيديولوجي الغربي العلماني اللائكي خاصة الذي صبغه بالميوعة والغموض من جهة ثانية ولما افتراه الحقودين على الدين الإسلامي السمح من صفات كالحقد والتعصب والعداء لغير المسلمين من جهة ثالثة خاصة في الوقت الراهن بغية تشويه سمعته وصورة أتباعه في عقول أصحاب الديانات المخالفة ، ولدى أولئك الذين يجهلون الدين الإسلامي على العموم .

إن تسامح الإسلام الديني (الحرية الدينية) يمثل احد قواه التشريعية التي لم يترك فيها ادنى التباس لما ورد في القران الكريم من آيات مخصوصة لذلك.

فالحرية الدينية مكفولة في الإسلام لقوله تعالى :﴿ **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾ [1] ، كما ورد في قوله تعالى :﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾ [2] وترددت الآيات القرآنية التي تؤكد نهج الإسلام السمح في مجال الاعتقاد ، تاركا للعبد التأمل في آيات الخالق في الكون ، كون الإنسان المخلوق الوحيد الذي فضله على باقي المخلوقات بملكة العقل ، هذه الملكة التي لو وظفت في عملية

التأمل لإدراك المخلوق حقيقة هذا الدين ومصدره وهو المصدر نفسه الذي تعود إليه الديانات المزولة قبله ، إنما جاء القرآن للعباد كافة على غير سابقيه (لأقوام خاصة).

إن الإسلام في أساسه يُدين التعصب كيفما كان جنسيا أو دينيا ويضع الإنسان من حيث هو مكانه التكريم لقوله تعالى: ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا.**﴾ [3]، وان الإسلام يدعوا إلى التعارف أي إلى التعايش والتساكن وتبادل المنافع والمصالح في الأخذ والعطاء وفي التأثر والتأثير بعيدا عن أية عصبية و إقليمية أو نعرة ثقافية وهو بذلك لا يرى التفاضل إلا بالتقوى يقول الله تعالى:﴿ **يا أيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم.**﴾ [4] والتعارف يقتضي القدرة عليه وأكثر ما تمثله القدرة هو قبول الاختلاف في الرأي والمخالفة في العقيدة.وجاء في قوله تعالى :﴿ **قل يا أيها الكافرون * لا اعبد ما تعبدون*ولا انتم عابدون ما اعبد *ولا أنا عابد ما عبدتم* ولا انتم عابدون ما اعبد* لكم دينكم وليّ دين*﴾** [5] صدق الله العظيم، في الآية السادسة من هذه السورة الكريمة ﴿**لكم دينكم ولي دين**﴾ خير نص تشريعي للحرية الدينية وبالتالي يصبح اعتناق الإسلام يشترط الحرية والاقتناع ، ويتطرق الدين الإسلامي حتى لكيفية التعامل مع أصحاب الديانات الأخرى الذين هم ليسوا بأهل

الكتاب ، فيقول الله تعالى: ﴿**وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه**﴾ [6] ومن هنا تتجلى الحرية الدينية بالنسبة للإسلام وعلاقته حتى مع المعتقدات الأخرى ويقول المولى عزوجل: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم**﴾. [7]، ويبين القرآن الكريم كيفية المعاملات الاجتماعية مع غير المسلمين ، إشارة إلى أن الحياة معاملات واتصالات بين البشر ما يفهم منه نفي القطيعة والتقوقع على الذات تجاه المخالفين مثل البر والإحسان والقسط تجاههم لقوله تعالى :﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم إن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين.**﴾ [8]، كما يعارض القرآن الكريم التعصب الديني السلبي تجاه أهل الكتاب ودياناتهم لقوله تعالى :﴿**ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي انزل إلينا وانزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون.**﴾ [9].

لقد شجع القرآن الكريم على التقارب والتسامح والألفة والمودة بين معتنقيه وأهل الكتاب بغية الانسجام الاجتماعي الذي لا سبيل إليه إلا بالمعاملة. يقول الله تعالى:﴿ **اليوم احل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من**

قبلكم.﴾[10] هذا مع ما توضحه الآيات مما حرمه الله من طعام على المسلمين كالخمر ولحم الخنزير ...وبالرغم من أن الدين الإسلامي اقر مبدأ التعامل بالتسامح مع الغير(الكتابي والمشرك) إلا أن بعضا منهم يضمرون كما قلنا سالفا الحقد ، وهذا ما نجده في سياق قوله الله تعالى:﴿**لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وإنهم لا يستكبرون.**﴾[11]، ففي هذه الآية ابلغ رد على أولئك الذين ينعتون الإسلام بالتعصب والكره لأهل الديانات الأخرى.

إن التسامح كذلك في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مستنيرا بما ورد في ألقران الكريم في تعاملاته مع المخالفين من أهل الكتاب ، فقد ورد في كتابه لأهل نجران بغية الصلح معهم: "**ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأرضهم وملتهم وغايبهم وشاهدهم وعشيرتهم وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير لا يغير أسقفا من اسقفيته ولا راهبا من رهبانيته ، لا كاهنا مكن كهانته وليس عليهم دية ولا دم جاهلية ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش ...ولا يؤخذ رجل منهم بظلم أخر، وعلى ما في هذا الكتاب جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ، حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا...**"[12]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "**من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة ، وان ريحها ليوجد من مسيرة**

أربعين عاما"[13] ويروى عنه صلى الله عليه وسلم أقوالا كثيرة في الحظ عن التسامح والعدل مع المعاهدين ماداموا في عهد مع المسلمين حيث قال صلى الله عليه وسلم: **"من ظلم معاهدا أو أنقصه أو كلفه فوق طاقته ، أو اخذ منه شيئا بغير طيب نفس ، فانا حجيجه يوم القيامة"**[14]

ليس هذا فحسب بل ما نلتمسه من معاملة اتصفت بالتسامح والعدل مع صحابة رسول الله ص وتابعييهم الذي كان أسوتهم الحسنة، فمن وصايا الخليفة أبو بكر الصديق العشرة لقواده تجاه النصارى قال:"... وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع رهبانا فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له"[15].

ومما يذكر إن عامل هشام بن عبد الملك على العراق بني لامه (النصرانية) كنيسة، ومن أعجب الظواهر في أيام العباسين الأوائل أن تفتح مراكز تبشيرية للنصارى في الهند والصين تحت رعاية الدولة العباسية الأولى.[16]، وهذا سعد بن أبي الوقاس الذي سمح للنصارى العيش بالكوفة وبمشاركتهم في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، كما سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية وجاء في عهده لهم "... على أن لا يعدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يضربوا نواقيصهم في أي ساعة شاءوا ليلا ونهارا إلا في أوقات الصلوات، وعلى أن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم[17].

ولم نجد خير شاهد على تسامح الإسلام مع أتباع غيره من الديانات مثل بعض القساوسة والمستشرقين والمنصفين الذين أبوا

إلا قول كلمة الحق التي لا ينطق بها الا من كان قلبه سليما خالية من الضغينة والتعصب، فمن يعود إلى مطالعة الإنتاج الفكري للتيار الاستشراقي فانه يقف بخصوص الموضوع على حقيقتين:

الأولى: اعتماد صنف منهم على نفي التسامح كحقيقة حرص عليها الإسلام وإتباعه تجاه أصحاب الديانات المخالفة بل كان القصد من ذلك الفكر تشويه هذا الدين وصورة أتباعه في المخيال الغربي ومخيال الفرد الغير مسلم بصورة عامة، وحتى بعض المستشرقين الذين ادعوا توخي الموضوعية لم تسلم نتائجهم حول الحضارة العربية الإسلامية والدين الإسلامي من المغالطات والتشويه وذلك راجع إلى عدم تمكنهم التخلص من الإيديولوجية الغربية المبنية على فكرة التمركز الغربي ومن خلالها التعالي الغربي والتي مازالت متواصلة في عطائها الفكري اللاعلمي حتى الوقت الحالي.

أما الحقيقة الثانية: فتتمثل فيما أقرته تلك الفئة القليلة من المستشرقين التي تعاملت مع الحقائق بكل أمانة وهذه نماذج مما كتبوه في الموضوع:

- كتب المستشرق "دونال" في كتابه تاريخ الرهى :"إن الخلفاء عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب احسونوا إلى النصارى ودافعوا عن حقوقهم فازدهرت الديانة النصرانية في أيامهم..." أما المستشرق "لومون": يقول ومن يتتبع

سير التاريخ يرى أن المسلمين في صدر الإسلام كانوا يحترمون النصارى ويدافعون عن حقوقهم وولوا بعضهم على البلاد التي كان اغلب سكانها نصارى، واكتفوا بطلب الجزية منهم. كما كتب المستشرق "لوبون" يقول لقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابين وهو يشير إلى ماكتبه المستشرق روبرسون" حين قال أن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى...الحق إن الأمم تعرف فاتحين راحمين مسالمين مثل العرب ولا ديا سمحا مثل دينهم."

هذا قليل من الكثير الذي لا تتسع لاحتوائه هذه الصفحات المعدودة بل نجد لتلك الاتهامات والمناورات التي يستهدف بها الدين الإسلامي من الغرب ردا وايجابية مقنعة من ذويهم المستشرقون النزهاء،وفي هذا السياق تجربنا الإشارة إلى ما ذهب إليه احد أعمدة المنظرين لهذا العصر "برنار لويس" في سياق حديثه عن اختلاف النظرة المتبادلة للشرق والغرب بان هذا الاختلاف." لا يعود إلى تسامح ديني كبير من طرف الأوروبيين، بل لقد كان الأوروبي ، على العكس من ذلك أكثر تعصبا ولا تسامحا تجاه المسلم مما كان عليه الأمر مع الإسلام إزاء المسيحية وترجمة أسباب تفتح الإسلام إلى اعتبارات لاهوتية وتاريخية وعملية كذلك ...لقد كان المسيح بالنسبة للمسلم رائدا ونبيا مبشرا، في حين النبي محمد كان في نظر المسيحي دجالا ومضللا

...وكان المسيحي يتمتع كما هو الأمر مع اليهودي بحق التسامح من طرف الدولة الإسلامية، إما بالنسبة للمسيحي، فان موقفا مماثلا كان غير مقبول من الزاوية اللاهوتية ما دام الإسلام يمثل دينا بعديا"

حقيقة أن علماء الاجتماع ،يذهبون با لقول أن الوجود الإنساني مبني على الصراع ، والصراع هنا بمعنى "إثبات الوجود" صراع الإنسان مع الطبيعة (الحر،البرد،الجفاف...) صراع الإنسان مع الإنسان من أجل تأمين ضروريات حياته من الحاجيات تجاه رغبة الهيمنة والاستغلال الإنساني كظاهرة إنسانية عرفتها جميع المجتمعات والحضارات الإنسانية....لكن المتأمل في تاريخ البشرية وحاضرها،لشك أنه يتساءل هل من سبيل لإخماد تلك صراعات المتواصلة بين الشعوب والأمم؟ هل هناك من فرص لتأسيس مجتمع أنساني تسوده الأخوة الإنسانية ؟.

إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة في اعتقادنا تبدو مع تبني الإنسان للتسامح الفعلي تجاه من حوله من أفراد أولا ثم الارتقاء لتسامح الجماعات والمجتمعات إلى مثيلاتها المختلفة والمخالفة لها ثقافة وعقائديا وهذا ما تطمح تحقيقه بعض الدراسات الاستشرافية العربية الإسلامية والغربية على حد سواء.

الهوامش

1 سورة يونس الآية 99 .
2 سورة الكهف الآية 29.
3 سورة الإسراء الآية 70.
4 سورة الحجرات الاية 13.
5 سورة الكافرون .
6 سورة التوبة الاية 6
7 سورة القرة الاية 256.
8 سورة الممتحنة الاية 8.
9 سورة العنكبوت الاية 46 .
10 سورة المائدة الآية 5.
11 سورة المائدة الآية 82
12 د .محمد بن علي الهرفي : نحن والأخر: تعارف وحوار أم صدام ودمار ، مكتبة دار المعالم الثقافية، الطبعة الأولى السعودية السنة 2005 ص 136-138.
13
14 مجلة افاق الثقافة والتراث العدد 26 ص 19
15 انظر التاريخ الطبري الجزء الثاني ص 213.
16 فليب حتي تاريخ العرب ص 424 .
17 ورد في مقال للدكتور توفيق السلطان اليوزبكي ، مجلة الثقافة والتراث العدد 26 ص 20.